قلوب قاسية وحجارة خاشعة ـ تأملات في النص القرآني

د.هند جودت كاظم

ملخص البحث

تناول البحث موضع القلب القاسي الذي لم يعرف الله تعالى حقا ولا لسبيله طريقا، مع ان كل ما حوله عرف الحق ونطق به، فهذه السموات العلى، وهذه الجبال الراسيات، وهذه النجوم والكواكب المتناثرة، وهذه الاحياء في جوف البحار وظلماته، وذلك الطير في جو السماء، وهذه الحجارة الصلدة اليابسة كلها تقر بعبوديتها لله تعالى، تلهج بالتسبيح والتحميد. وقد جاء البحث على ثلاثة مباحث: الأول في القلوب القاسية، والثاني في الحجارة الخاشعة، وخص المبحث الثالث بالتشبيه والمقارنة بين الحجارة والقلوب القاسية. وختم البحث بنتائج، منها: أن القلب هو منبع اليقين ومصب الإيمان، واصل التقوى، فاذا رق القلب والتزم التقوى رقت جميع الجوارح، واذا غلظ القلب وافجر في العمل فجرت الجوارح، وأن من اهم عوامل قسوة القلب هو نقض عهد الله، وأن الحجارة خلق من خلق الله تعالى أوجدها لحكمة وهي خانعة خاضعة لمشيئته وأمره، وأن في التشبيه القرآني الحقيقة الصادقة والبلاغة القائمة المعجزة والمقدرة الفائقة في اختيار ألفاظه وعباراته.

Cruel Hearts and Humbled Stones : Contemplations in the Qur'anic Text

Dr. Hind Jawdat Kazem

Abstract

This study deals with the position of cruel heart. By the cruel heart is meant the person who doesn't know Allah nor his path, whereas all around him knows the truth and utters it. Heavens, mountains of the earth, stars , scattered planets , and dry solid stones, all recognize and worship Almighty Allah . They all keep praying and praising Him. The research is based on three topics: the first is the cruel hearts, the second is the humbled stones, and the third dimension looks for the similarities and differences between the heart and the stone .The research ends with some results, among them are: The heart is the source of certainty and the bottom of the faith. If the heart becomes soft all of the extremities become soft too, and if the heart becomes cruel and burst with bad deeds, the extremities will burst too. And one of the most important factors of the cruel heart is revoking the covenant with Allah and that the stone is one of Allah's creations. Allah creates it for certain reason and wisdom and it is subjugated to his will and ordered.The rhetorical miraculousness is shown in the choices of words through the use of truthful similes and metaphors.

قلوب قاسية وحجارة خاشعة

تأملات في النص القرآني

د.هند جودت كاظم

جامعة ديالى ـ كلية التربية للعلوم الصرفة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد؛ فإن البحث في كتاب الله تعالى هو من أجل المقاصد ، واسمى المطالب ، ومن خصائص القرآن روعة تشبيهاته ، ولطيف استعاراته ، وبديع نظمه ، وقد تناول المباحث المتنوعة والقضايا المختلفة بأسلوب جميل مبهر لاتجد له نظيرا في لغتنا العربية ولا في اللغات الاخرى.

ومن القضايا التي فصلها القرآن وعالجها خبايا النفوس ، وخلجات القلوب ، وما كان لذلك التفصيل والمعالجة ان تكون بهذا المستوى لو كان المتكلم غير الله سبحانه وتعالى الخالق المصور فتبارك الله احسن الخالقين.

وقد آثرنا في هذا الموضع ان ندرس موضع القلب القاسي الذي لم يعرف لله تعالى حقا ، ولا لسبيله طريقا ، مع ان كل ماحوله عرف الحق ونطق به ، فهذه السموات العلى ، وهذه الجبال الراسيات ، وهذه النجوم والكواكب المتناثرة ، وهذه الاحياء في جوف البحار وظلماته ، وذلك الطير في جو السماء ، وهذه الحجارة الصلدة اليابسة كلها تقر بعبوديتها لله تعالى ، تلهج بالتسبيح والتحميد ، تنطق بالفضل والاحسان ، تعترف بالفضل والامتنان لفالق الحب والنوى فسبحان من خلق فسوى.

ومن هنا كان عنوان بحثنا (قلوب قاسية وحجارة خاشعة تأملات في النص القرآني) الذي جاء على ثلاثة مباحث وخاتمة .

درس المبحث الأول القلوب القاسية فكان عنوانه : قلوب قاسية ، ودرس المبحث الثاني الحجارة الخاشعة فجاء تحت عنوان : حجارة خاشعة ، وخص المبحث الثالث :

التشبيه والمقارنة بين الحجارة والقلوب القاسية.

وختمنا البحث بخاتمة بينا فيها اهم النتائج ، نسأل الله تعالى القبول والتوفيق انه سميع مجيب.

المبحث الأول

قلوب قاسية

القسوة والقساوة توصف بها الأجسام وتوصف بها النفوس المعبر عنها بالقلوب فالمعنى الجامع للوصفين هو عدم قبول التحول عن الحالة الموجودة إلى حالة تخالفها.[١]

وقست في اللغة : أي غلظت ويبست، فتأويل القسوة في القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع.[٢]

وعن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»[٣]

وروي عن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، وإن كانت لينة فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كهيئة الأرباب وانظروا في ذنوبكم كهيئة العبيد. الناس رجلان مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء وسلوا الله العافية»[٤]

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور:١/ ٥٦٢.
(٢) تهذيب اللغة ، الأزهري : ٩/ ١٨٠ ، مادة : قوس ، وابن منظور ، لسان العرب : ١٥/ ١٨١ ،مادة : قوس، تفسير السمرقندي:١/ ٦٥ ، تفسير السمعاني : ١/ ٩٥.
(٣) الترمذي:٤/ ٦٠٧، رقم:٢٤١١، باب منه.
(٤) الزهد ، أبو السَّرِي الدارمي : ٢/ ٥٤٢

وقال بعض الحكماء: معنى قوله: [**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ**] أي يبست. ويبس القلب أن ييبس عن ماءين أحدهما: ماء خشية الله والثاني: ماء شفقة الخلق.[١]

إذن فالقلب هو منبع اليقين ومصب الإيمان، وكما أن الإيمان في القلب فإن القسوة والكفر في القلب. . فالقلب حينما ينسى ذكر الله يقسو. . لماذا؟ . . لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا وإلا المادة فيحاول أن يحصل منها على أقصى ما يستطيع وبأي طريقة فلا تأتي إلا بالظلم والطغيان وأخذ حقوق الضعفاء، ثم لا يفرط فيها أبدا لأنها هي منتهى حياته فلا شيء بعدها.[٢]

إنه يجد إنساناً يموت أمامه من الجوع ولا يعطيه رغيفا. . وإذا خرج الإيمان من القلب خرجت منه الرحمة وخرج منه كل إيمان الجوارح. . فلمحة الإيمان التي في اليد تخرج فتمتد اليد إلى السرقة والحرام. . ولمحة الإيمان التي في العين تخرج فتنظر العين إلى كل ما حرم الله. ولمحة الإيمان التي في القدم تخرج فلا تمشي القدم إلى المسجد أبدا ولكنها تمشي إلى الخمارة وإلى السرقة. . لأنه كما قلنا القلب مخزن الإيمان في الجسم.[٣]

والقلب هو أرق الاعضاء واكثرها تأثرا ، وهو في الأصل مصدر قلبت الشيء أقلبه قلبا إذا رددته على بداءته ، وقلبت الإناء : رددته على وجهه ، ثم نُقِل هذا اللفظ فسُمِّي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان لسرعة الخواطر إليه ولترددها عليه كما قيل :

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ فَاحْذَرْ عَلَى القلب من قلب وتحويل[٤]

---

(١) بحر العلوم ، السمرقندي:١/ ٦٥.
(٢) ينظر تفسير الشعراوي :١/ ٤٠٢.
(٣) ينظر : المصدر نفسه :١/ ٤٠٢.
(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي :١/ ١٨٨.

وقال تعالى : [فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ][1] وويل كلمة عذاب وهلاك وزجر وتهويل، فياله من وعيد ينتظر اصحاب القلوب القاسية ، وياله من تهويل لمن فسا قلبه . ان المتأمل في هذه الآيات التي خصت قسوة القلب عليه ان يدرك كلام الله تعالى ولايجعله شيئا هامشيا في حياته لان القرآن اهتم بها وخصها بالذكر باساليب تدل على التهويل والتخويف لمن اتصف بها فعلينا مراجعة النفس قبل فوات الاوان.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ » .[2]

وفي الحديث القدسي : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه»[3].

يدل ذلك على ان القلب اصل التقوى ، واهل اصل الفجور ، فاذا رق القلب والتزم التقوى رقت جميع الجوارح ، واذا غلظ القلب وافجر في العمل فجرت الجوارح كما قال

(١) سورة الزمر : ٢٢.
(٢) رواه احمد في مسنده :٣٢/ ٤٣١، رقم : ١٩٦٦١، باب حديث ابي موسى الاشعري.
(٣) رواه مسلم : ٤/ ١٩٩٤، رقم:٢٥٧٧ ، باب تحريم الظلم.

رسول الله صلى الله عليه وسلم التقوى هاهنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات»[1].

ان من اهم عوامل قسوة القلب هو نقض عهد الله ، قال تعالى [**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**] [2]إذ جعل الله سبحانه وتعالى نقض العهد من اهم اسباب قسوة القلب فقال سبحانه وتعالى : [**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**][3] فنرى كيف ان بعضهم عاهد الله تعالى ان اعطاهم الله من فضله ان يصدقوا مما اعطاهم ، ولكن عندما اعطاهم الله من فضله نقضوا العهد ، فكانت عقوبتهم من الله ان اعقبهم نفاقا حتى الممات .

ان من الناس من ينزل به بلاء او مرض واحتاج الى ربه تاب واناب وعاهد الله ثم اذا ما احابه الله لسؤاله اخلف وعده معه فيضرب الله على قلبه قسوة ونفاقا.

وقال مالك بن دينار : « إن لله عقوبات في القلوب والأبدان : ضنك في المعيشة ، ووهن في العبادة ، وما ضُرِب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب» [4].

وقال ابن القيم رحمه الله : « ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله خلقت النار لإذابة القلوب القاسية أبعد القلب من الله القلب القاسي، إذ قسى قحطت العين». [5]

---

(١) رواه مسلم : ٤/ ١٩٨٦، رقم٢٥٦٤ ، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله.

(٢) سورة المائدة : ١٣.

(٣) سورة التوبة : ٧٥ــ ٧٧.

(٤) موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز السلمان:٥/ ٦١٤.

(٥) المصدر نفسه:٥/ ٦١٤.

ويقول رحمه الله : « والقلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية ويصدأ كما تصدئ المرآة وجلاوة بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسد وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة »..[1]

وقال أيضا : « ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرها وجلاؤه بالذكر فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ، فإذا ذكر جلاه »..[2]

وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر. فمن كأنت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكما على قلبه، وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدأ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ وأسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقا ولا ينكر باطلا. وهذا أعظم عقوبات القلب.[3]

(١) المصدر نفسه:٥/ ٦١٤.
(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز السلمان:٥/ ٦١٤.
(٣) المصدر نفسه:٥/ ٦١٤.

المبحث الثاني

حجارة خاشعة

الحجارة خلق من خلق الله تعالى ، أوجدها لحكمة ، وهي خانعة خاضعة لمشيئته وأمره ، فقد تكون جنديا لإذلال عدو ، وقد تكون معجزة لنصرة نبي ، وقد تكون سبيلا لخروج الماء ، وهي بين هذا وذاك تلهج بالتسبيح للخالق العظيم [**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**] (١) كما ان الطير صافات بخشوع وتضرع بين شكر وحمد وصلاة وتسبيح [**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**] (٢) كما هو شأن الشمس والقمر والنجوم والدواب وغير ذلك من خلق الله [**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**] (٣) سبحان الله ! ماهذا الجبل الشامخ الضخم الصلد يسبح لله ويسجد لله ولايتكبر ولايصيبه الغرور ورغم هذا لايتحمل نزول القرآن ، لانه يسبح تسبيحا حقيقيا فما بالنا قست قلوبنا لاتشعر ولاتخشع ولاتتصدع مع انها عضلة صغيرة بحجم قبضة اليد قد امتلأت بسوء الظن والتكبر والحسد والحقد والضغينة وكل الامراض المعدية بحيث لو تأملنا

---

(١) سورة الاسراء : ٤٤.

(٢) سورة النور: ٤١.

(٣) سورة الحج :١٨.

من صدوع الجبال لوقفنا خجلا من قسوة قلوبنا وليكن هذا مثلا ننتفع به ويكون دافعا لتسبيح الله وتعظيمه.

ومن حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الفتنة مخاطبا من حوله : قال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير مكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال: فركضه برجله وقال: «اسكن ثبير فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان؟» قالوا: اللهم، نعم. قال: الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد، ثلاثا [1]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»[2]

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم، راجعا وبدا له أحد، قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» ثم أشار بيده إلى المدينة، قال: «اللهم إني أحرم ما بين لابتيها، كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا»[3]

وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، انه قال: « كان المسجد مسقوفا على جذوع من نخل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار، حتى جاء النبي

(١) رواه الترمذي : ٥/ ٦٢٧، رقم :٣٧٠٣ ، باب ، وقال : «هذا حديث حسن وقد روي من غير وجه عن عثمان».
(٢) رواه مسلم : ٤/ ١٧٨٢ ، رقم : ٢٢٧٧ ، بَابُ فَضْلِ نَسَبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ .
(٣) رواه البخاري :٤/ ٣٥ ، رقم :٢٨٨٩ ، باب فضل الخدمة في الغزو.

صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت»[1]

قال الحسن البصري بعد إيراده الحديث السابق : « فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الجذع » [2]

اذن فهذه المخلوقات لم تخلق عبثا ولها دور مؤثر في الحياة ، وعودة الى الحجارة ، ووقفة امام الجبل العظيم انه يهتز ويخشع ويتصدع لكلام الله [**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**][3] فإن كان الجبل في غلظته وقساوته ، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ، لخشع وتصدع من خوف الله ، عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : [**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**].[4]

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتصبب عرقا عند نزول القرآن ، وكان الصحابة الكرام يستشعرون القرآن ويطبقونه ، وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يخاطب القرآن قائلا ودموعه تسيل : لقد شغلنا الجهاد عنك .

قال العوفي : عن ابن عباس في قوله : [**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا**] إلى آخرها ، يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه ، لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال : [**كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون**] . وكذا قال

---

(١) رواه البخاري :٤/ ١٩٥ ، رقم :٣٥٨٥ ، باب علامات النبوة في الإسلام.
(٢) تفسير القران العظيم ، ابن كثير:٨/ ١٠٨ .
(٣) سورة الحشر : ٢١.
(٤) ينظر : تفسير القران العظيم ، ابن كثير:٨/ ١٠٨ .

قتادة ، وابن جرير .[1]

هاهو النص القرآني يشهد لفضل الحجارة ، تلك الحجارة اليابسة الصلدة [**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**][2] وهنا يذكرهم الله لما رأوه من الرحمة الموجودة في الحجارة . عندما ضرب موسى الحجر بالعصا فانفجرت منه العيون. وذلك مثل حسي شهدوه. يقول لهم الحق جل جلاله: أن الرحمة تصيب الحجارة فيتفجر منها الأنهار ويخرج منها الماء ويقول سبحانه: [**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله**] . .[3]

إذن فالحجارة يصيبها اللين والرحمة فيخرج منها الماء. ولكن قلوبكم إذا قست لا يصيبها لين ولا رحمة فلا تلين أبدا ولا تخشع أبدا. والله سبحانه وتعالى نزل عليكم التوراة وأعطاكم من فضله ورحمته وستره ومغفرته الكثير فكان الأولى والمفروض أن تلين قلوبكم لذكر الله.[4]

ويقف الشيخ الشعراوي رحمه الله على الفرق بين تفجر الأنهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء ! فيقول : « ولكن ما الفرق بين تفجر الأنهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء؟ عندما تتفجر الحجارة يخرج منها الماء. نحن نذهب إلى مكان الماء لنأخذ حاجتنا. . ولكن عندما تتفجر منها الأنهار فالماء هو الذي يأتي إلينا ونحن في أماكننا. . وفرق بين عطاء تذهب إليه وعطاء يأتي إليك. »[5]

(١) ينظر : تفسير القران العظيم ، ابن كثير:٨/ ١٠٨.
(٢) سورة البقرة : ٧٤.
(٣) ينظر تفسير الشعراوي :١/ ٤٠٢
(٤) ينظر المصدر نفسه:١/ ٤٠٢.
(٥) تفسير الشعراوي :١/ ٤٠٢

اذن فهذه الحجارة الصلدة القاسية هي مصدر للخير الكثير ، وهي موضع لتعظيم الخالق سبحانه ، وهي شاهد على جحود القلوب القاسية التي لم تعرف للرحمن حقا ولا لسبيله طريقا.

المبحث الثالث

التشبيه والمقارنة بين الحجارة والقلوب القاسية

ان في التشبيه القرآني الحقيقة الصادقة، والبلاغة القائمة المعجزة، والمقدرة الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة المصوّرة الموحية، ومن خصائص التشبيه القرآنى، أنه ليس عنصرا إضافيّا في الجملة، ولكنه جزء أساسى لا يتم المعنى بدونه، وإذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه، فعمله في الجملة أنه يعطى الفكرة في صورة واضحة مؤثرة، فهو لا يمضى إلى التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته، ولكن التشبيه يأتى ضرورة في الجملة، يتطلبه المعنى ليصبح واضحا قويّا[1]

وحين نقف امام قوله تعالى : [**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**] [2]

والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى.. هي حجارة لهم بها سابق عهد. فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى.. قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة.. ومن ثم هذا التهديد [3]

---

(١) من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي:١٥٣.

(٢) سورة البقرة: ٧٤.

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب :١/ ٨٠.

واننا نتساءل هنا اولا عن المخصوص بهذا الخطاب وهذا الوصف ، قال القفال: يجوز أن يكون المخاطبون بقوله: قلوبكم أهل الكتاب الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم، أي اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التي جاءت أوائلكم والأمور التي جرت عليهم والعقاب الذي نزل بمن أصر على المعصية منهم والآيات التي جاءهم بها أنبياؤهم والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم، فأخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التي تلين عندها القلوب، وهذا أولى لأن قوله تعالى: ثم قست قلوبكم خطاب مشافهة، فحمله على الحاضرين أولى، ويحتمل أيضا أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام خصوصا، ويجوز أن يريد من قبلهم من سلفهم.[1]

اما عن تحليل القسوة واتصاف الحجارة والقلب بها فيقول الامام الفخر الرازي : الشيء الذي من شأنه بأصل ذاته أن يقبل الأثر عن شيء آخر ثم إنه عرض لذلك القابل ما لأجله صار بحيث لا يقبل الأثر فيقال لذلك القابل: إنه صار صلبا غليظا قاسيا، فالجسم من حيث إنه جسم يقبل الأثر عن الغير إلا أن صفة الحجرية لما عرضت للجسم صار جسم الحجر غير قابل وكذلك القلب من شأنه أن يتأثر عن مطالعة الدلائل والآيات والعبر وتأثره عبارة عن ترك التمرد والعتو والاستكبار وإظهار الطاعة والخضوع لله والخوف من الله تعالى، فإذا عرض للقلب عارض أخرجه عن هذه الصفة صار في عدم التأثر شبيها بالحجر فيقال: قسا القلب وغلظ، ولذلك كأن الله تعالى وصف المؤمنين بالرقة فقال: [**كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**].[2]

(١) التفسير الكبير ، الرازي:٣/ ٥٥٥ ، ومحاسن التأويل ، القاسمي :١/ ٣٣٠.
(٢) التفسير الكبير ، الرازي:٣/ ٥٥٥ ، والآية من سورة الزمر: من الآية ٢٣.

[**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**] والمتأمل للنص القرآني يجد انه إنما وصفها بأنها أشد قسوة وذلك لوجوه :

أحدها: أن الحجارة لو كانت عاقلة ولقيتها هذه الآية لقبلنها كما قال: [**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ...][1].

وثانيها: أن الحجارة ليس فيها امتناع مما يحدث فيها بأمر الله تعالى وإن كانت قاسية بل هي منصرفة على مراد الله غير ممتنعة من تسخيره، وهؤلاء مع ما وصفنا من أحوالهم في اتصال الآيات عندهم وتتابع النعم من الله عليهم يمتنعون من طاعته ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقه وهو كقوله تعالى: [**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**][2]. إلى قوله تعالى: [**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ** ...][3]. كأن المعنى أن الحيوانات من غير بني آدم أمم سخر كل واحد منها لشيء وهو منقاد لما أريد منه وهؤلاء الكفار يمتنعون عما أراد الله منهم.

وثالثها: أو أشد قسوة، لأن الأحجار ينتفع بها من بعض الوجوه، ويظهر منها الماء في بعض الأحوال، أما قلوب هؤلاء فلا نفع فيها البتة ولا تلين لطاعة الله بوجه من الوجوه.[4]

والمعنى: أن الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق اللطيف فيشقها وينفذ منها بقلة أو كثرة، فيحيي الأرض وينفع النبات والحيوان. وأما هذه القلوب فلم تعد تتأثر بالحكم والنذر ولا بالعظات والعبر، فالحكم لا تقوى على شقها والنفوذ منها إلى

(١) سورة الحشر : ٢١.
(٢) سورة الانعام : ٣٨.
(٣) سورة الانعام : ٣٩.
(٤) التفسير الكبير ، الرازي:٣/ ٥٥٥.

أعماق الوجدان، وأنوار الفطرة قد انطفأت فيها فلا يظهر شعاعها على إنسان، ومن الحجارة ما يشقه الماء القليل كماء العيون والينابيع الحجرية، ومنها ما لا يفجره إلا الماء القوي الغمر الذي يسمى نهرا. [**وإن منها لما يهبط من خشية الله**] وهو ما ينحط من أعلى الجبل، ومن أثنائه بسبب أثر من آثار القهر الإلهي كالبراكين والصواعق التي تهبط بها الصخور وتندك الجبال، وقد جعل هذا شبها للآيات الإلهية التي أظهرها على يد عبده ونبيه موسى - عليه السلام -، فهي حوادث عظيمة في الكون تفزع بها نفوس المؤمنين إلى الله، وتخشع لأمره ونهيه لعظمتها وخفاء سر إيجادها، كما تفزع النفوس من حوادث البراكين والصواعق التي تدك الصخور وتدمر الحصون، وقد أصبحت تلك القلوب بعد مشاهدة الآيات لا تتأثر بها ولا تزداد إيمانا.[1]

فملخص التشبيه: أن قلوبكم تشبه الحجارة في القسوة، بل قد تزيد في القساوة عنها، فإن الحجارة الصم تتأثر في باطنها بالماء اللطيف النافع، بعضها بالقوي منه وبعضها بالضعيف، ولكن قلوبكم لا تتأثر بالحكم والمواعظ التي من شأنها التأثير في الوجدان والنفوذ إلى الجنان، والحجارة تتأثر بالحوادث الهائلة التي يحدثها الله في الكون كالصواعق والزلازل، ولكن قلوبكم لم تتأثر بتلك الآيات الإلهية التي تشبهها، فلا أفادت فيها المؤثرات الداخلية، ولا المؤثرات الخارجية كما أفادت في الأحجار، فبذلك كانت قلوبكم أشد قسوة. ثم هددهم بقوله: [**وما الله بغافل عما تعملون**] أي فهو سيربيكم بضروب النقم، إذا لم تتربوا بصنوف النعم.[2]

ان الجبل قسوته مطلوبة لأن هذه مهمته أن يكون وتداً للأرض صلبا قويا، ولكن هذه القسوة ليست مطلوبة من القلب وليست مهمته. . أما قلوب بني إسرائيل فهي

(١) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا:١/ ٢٩٢.
(٢) ينظر: المصدر نفسه:١/ ٢٩٢.

أشد قسوة من الجبل. . والمطلوب في القلوب اللين، وفي الحجارة القسوة. . فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لمهمة. . فالخطاف مثلا أعوج. . هذا العوج يجعله يؤدي مهمته على الوجه الأكمل. . فعوج الخطاف استقامة لمهمته. . وحين تفسد القلوب وتخرج عن مهمتها تكون أقسى من الحجارة. . وتكون على العكس تماما من مهمتها. .[1]

ولسائل ان يتساءل ، لم يشبه القلوب القاسية بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة ؟ والجواب لأن الحديد قابل للين فإنه يلين بالنار، وقد لان لداود عليه السلام، والحجارة لا تلين قط.[2]

وهنا لابد من تأمل لهذه الصور والنصوص القرآنية التي فيها من التشخيص والتهويل والتهديد لقساة القلب الشيء الكثير فلابد من معالجة ولابد من التوبة والرجوع الى الله لأنه سبحانه اشد فرحا بتوبة عبده ، وقد صح في الحديث عن انس بن مالك وانه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح)[3] رزقنا الله التوبة النصوح قبل الممات واكرمنا خشيته ونعوذ بالله العظيم من قلب لايخشع ونفس لاتشبع ومن عين لاتدمع ومن دعوة لاترفع وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.

(١) ينظر: تفسير الشعراوي :١/ ٤٠٢.
(٢) تفسير القرآن ، السمعاني : ١/ ٩٥ ، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن ، البغوي :١/ ١١٠ .
(٣) رواه مسلم : ٤/ ٢١٠٤، رقم : ٢٧٤٧ ، باب في الحض على التوبة والفرح بها.

الخاتمة

مما تقدم من بحث ودراسة يتبين لنا ما يأتي:

١. ان القلب هو منبع اليقين ومصب الإيمان ، واصل التقوى ، وكما أن الإيمان في القلب فإن القسوة والكفر في القلب، فاذا رق القلب والتزم التقوى رقت جميع الجوارح، واذا غلظ القلب وافجر في العمل فجرت الجوارح.

٢. ان من اهم عوامل قسوة القلب هو نقض عهد الله ، وهذا يجعل منه اداة لكل شر، ومنبعا لكل أذى.

٣. ان الحجارة خلق من خلق الله تعالى ، أوجدها لحكمة ، وهي خانعة خاضعة لمشيئته وأمره .

٤. ان في التشبيه القرآني الحقيقة الصادقة، والبلاغة القائمة المعجزة، والمقدرة الفائقة في اختيار ألفاظه وعباراته.

٥. أن الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق فيشقها وينفذ منها فيحيي الأرض وينفع النبات والحيوان. وأما هذه القلوب فلم تعد تتأثر بالحكم والنذر ولا بالعظات والعبر.

ختاما نسأل الله تعالى ان يجعلنا من اصحاب القلوب الخاشعة المقرة بوحدانيته وفضله انه سميع مجيب وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

١. بحر العلوم ، السمرقندي أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت ٣٧٣هـ) ، (د.ت).

٢. التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) ، الدار التونسية للنشر – تونس ، ١٩٨٤ هـ .

٣. تفسير الشعراوي (الخواطر) ، محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ) ، مطابع أخبار اليوم (د.ت).

٤. تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط٢، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩ م.

٥. تفسير القرآن، السمعاني أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت ٤٨٩هـ) ، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم ، دار الوطن، الرياض ، السعودية ، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م

٦. التفسير الكبير، الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين خطيب الري (ت ٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط٣، ١٤٢٠ هـ .

٧. تفسير المراغي ، المراغي أحمد بن مصطفى (ت ١٣٧١هـ) ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ، ط١، ١٣٦٥ هـ ، ١٩٤٦ م.

٨. تفسير المنار ، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين

بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ م.

٩. تهذيب اللغة ، الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠هـ ـ ٩٨٠م) ، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي (بيروت ـــ ٢٠٠١م) .

١٠. الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

١١. الزهد ، أبو السَّرِي هَنَّاد بن السَّرِي بن مصعب بن أبي بكر بن شبر بن صعفوق بن عمرو بن زرارة بن عدس بن زيد التميمي الدارمي الكوفي (ت ٢٤٣هـ) ، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي – الكويت ، ط١، ١٤٠٦.

١٢. سنن الترمذي المسمى (الجامع الصحيح) ، الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي(ت٢٧٩هـ ـ ٨٩٢م) ، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية ، (بيروت – ١٩٨٧م/ ١٤٠٨هـ).

١٣. صحيح البخاري ، البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ، (١٤٢٢هـ).

١٤. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج ، أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ ـ ٨٧٤م) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء التراث العربي (بيروت ـــ ١٩٥٦م / ١٣٧٥هـ).

١٥. في ظلال القرآن ، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ) ، دار

الشروق ، بيروت، القاهرة ، ط١٧، ١٤١٢ هـ .

١٦. لسان العرب ، ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ ـ ١٣١١م) ، ،ط١ دار صادر ، (بيروت - ١٩٥٦م/ ١٣٧٦هـ) .

١٧. محاسن التأويل ، القاسمي محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢هـ) ، تحقيق: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلميه ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨ هـ

١٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

١٩. معالم التنزيل في تفسير القرآن ، البغوي محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (ت ٥١٠هـ) ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ

٢٠. من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (ت ١٣٨٤هـ) ، نهضه مصر - القاهرة ، ٢٠٠٥ .

٢١. موارد الظمآن لدروس الزمان،عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ) ، ط٣٠، ١٤٢٤ هـ